على هامش الفلسفة

اختـــلاف الأفكار والنظريات الأخلاقية

للأستاذ محمد يوسف موسى
مدرس الأخلاق بكلية أصول الدين

قلنا فى الكلمة الأولى : إن الأخلاق تعتبر علما من العلوم إذ كانت تصل فى بحوثها إلى آراء وحقائق أخلاقية تبلغ من العموم وقبول الناس لها مبلغ الحقائق العلمية . ولكن هل توجد هذه الحقائق العامة للجميع ؟

مذهب الشك الأخلاق ينكر وجود أمثال هذه الحقائق التى يقبلها الناس جميعاً : البيض والسود ، والحمر والصفر ؛ لأن القواعد الأخلاقية ليست إلا عادات وتقاليد تختلف باختلاف العصور والبيئات؛ وليس يعوزنا أن نجد لهذا الرأى سندا فى التاريخ. هـذا مُونْـتَانى Montagne الفيلسوف والأخلاق الفرنسى المعروف ، بعد أن جمع كثيراً من الآراء والأحكام الأخلاقية ، يؤكد هذه النظرية بقوة حين يقول : لا يوجد شىء أكثر اختلافا بين أمم العالم بأسرها من العادات والقوانين . كثيراً ما نجد أمراً ممقوتاً هنا ممدوحا بل موصى به هناك؛ فى إسبارطه كانوا يمتدحون المهارة فى الفن ويتواصون بها بينما ذلك كان محرما عنـد غيرهم ، وقتل الآباء المعمرين إشفاقا عليهم من تحمل أعباء الحياة وتكاليفها تراه مباحا بل مأمورا به لدى بعض القبائل التى لا تزال فى دياجير الظلام ، وأخيرا لا يوجد أمر غير مرضى هنا إلا ويكون محمودا عند أمة أخرى[1]» .

وباسكال Pascal الفيلسوف الفرنسى الذائع الصيت استعاد بعض ما أتى به مُونْـتَانى من مثل وحجج ، وأتبع ذلك بفيض من فصاحته اللاذعة إذ يقول : « لا يوجد تقريباً شىء عادل أو غير عادل إلا ويغير من صفته تغير إقليمه ؛ ثلاث درجات فى الارتفاع إلى القطب تقلب رأسا على عقب كل ما عرف من عدالة . خط واحد من خطوط الزوال يتحكم فى الحقيقة والحكم الخلق — الحق له أزمانه وبيئاته ، عدالة مضحكة هذه التى يحدها نهر ! حقيقة أمام جبال البرينيه Pyrenées خطأ وضلال وراءها[2] »

حقيقة أن التاريخ وعلم الاجتماع ليؤكدان أن القواعد اختلفت باختلاف العُصُر ، كما اختلفت وتختلف فى العصر الواحد بحسب البيئات . الرق كان نظاماً معروفاً لدى العبرانيين والمصريين القدماء والهنود والصينيين والعرب فى الجاهلية ، وإن اختلقوا شدة ولينا وقسوة ورحمة فى معاملة الأرقاء . كما كانت الجمعية الإنسانية فى المدينة الأغريقية — التى يفخر بها الأوربيون اليوم — تقوم على استرقاق فريق من المواطنين ؛ حتى إن أرسطو بجلالة قدره يبرره لاعتبارات مختلفة : منها أنه لا بد من العبيد ليتوفر الرجال الأحرار على الدراسات العقلية العالية ، وأنه يوجد أناس بلغوا من السفالة والضعة أن يفهموا أنهم خلقوا للاستعباد . كما لم تمنعه الديانة المسيحية ولا الدين الإسلامى أيضاً ؛ وإن لم تنبه الشريعة الإسلامية كغيرها على أن من الناس من خلقوا للذل والهون ، ومن لا ترتفع بهم طبائعهم إلى مراقى الأحرار بل جعلت سببه أمراً واحداً : هو الكيد للاسلام ومحاربة الله ورسوله ، ثم تدور الدائرة عليه[3].

هكذا كان الرق نظاماً معروفاً فى الأزمان الماضية ؛ أما فى أيامنا هذه فقد صار معتبراً من أشنع الظالم الإنسانية ، وغدا محرماً تحريماً باتاً .

لنترك الآن حق الحرية الشخصية وما كان فيه من اختلاف ، لنلق نظرة على حق الحرية الفكرية لنعلم ماذا كان حظه من تقدير الناس واتفاقهم عليه كحق عام يجب أن يتمتع به الجميع .

فى العصور المتوسطة كان عدم التسامح الدينى لدى المسيحيين مبرراً لا نكير فيه . ما كان أكثر رجال الدين الأعلام الذين كانوا يؤكدون أن الحقيقة لها كل الحقوق ومن بينها اضطهاد الضالين — فى رأيهم طبعاً — بوساطة القوة ! وأية حقيقة هذه التى كانوا يتكلمون عنها ؟ إنها الحقيقة التى يعتقدونها ، أى حقيقة كنيستهم ؛ فالتعاليم التى تتعارض وتعاليم كنيستهم كلها ضلال ،

(١) Challaye : Philosophie Scientifique et philosophie morale

(١) أفكار باسكال Pascal : Pensées Pascal

(٢) مما يرجع إليه فى هذا كتاب الرق فى الاسلام الذى ألفه بالفرنسية العلامة احمد شفيق باشا وعربه المغفور له احمد زكى باشا

كلها إلحاد ، كلها جرائم موجهة ضد الارادة الإلهية فهى حرية بأشد العقاب . ها هو ذا سانت أوجستين Sant Augustin[1] مع رجاحة عقله وسمو فكره يوصى بالالتجاء للاكراه لهداية الضال حيثما تعوز الحيلة ولا ينجح الإقناع[2]. وكذلك سانت توماس Sant Thomas (أبعد رجال الكنيسة الغربية ذكراً : ١٢٢٦ — ١٢٧٤) يقول فى بعض ما كتب : إذا كان المزورون والمحرمون يعاقبون عدلاً بالإعدام ، فحرى بنا أن يكون جزاء المزاطقة الخوارج عن الدين لا الحرمان الأبدى من الكنيسة فقط بل الموت الزؤام . وقد كان من أثر هذا التعصب المقوت ما يذكره تاريخ فرنسا من المذابح التى سالت فيها الدماء أنهاراً بين الكاثوليكيين ودعاة الإصلاح الذين اعتبروهم ملاحدة خرجوا على الدين .

ولسنا فى حاجة لذكر ما كان من محاكم التفتيش فى أسبانيا النصرانية، وما أنزلته بالأبرياء من عذاب لا لشىء إلا حداً من حرية الدين والفكر ، ولا لما كان من تعذيب بعض سادات قريش وغير قريش فى الجاهلية لبعض الذين هداهم الله للاسلام ليعودوا مشركين. لسنا فى حاجة لذكر هذا وأمثاله لنتبين كيف كانت عقلية الناس حتى كبار الأحلام فى تلك الأيام ! أما فى أيامنا هذه فيعتبر عدم التسامح سبة وجريمة أخلاقية مهما كان سببه ومأتاه. العقول الحرة تأباه وتجده مرذولاً ، وغالب رجال الأديان يمقتون الإكراه فى سبيل نشر ما يعتقدون « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء. لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى . فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »

على أننا نقول إن الأمر كاد فى هذه الناحية يعود قريباً من سيرته الأولى : أحداث تجد ، وأفكار تتغير ، وأغاط فى الحكم تستحدث فى بعض دول أوربا تقيد بل تلغى حريات الناس . فلا يفكرون إلا بقدر ، وعلى ما يهوى السادة الحكام !

ثم حقوق النساء ؛ أترى الناس كانوا فيها على اتفاق ؟ لا . إن التاريخ شاهد صدق على اختلاف الناس فيها اختلافاً كبيراً . كان الأثينيون — وهم من تعلم مدنية وحضارة فى الأزمان الماضية — يرون المرأة سلعة تباع وتشترى ، وجعلوا مهمتها فى الحياة تربية الأطفال وتنظيم البيوت . واليهود أباح بعض طوائفهم للأب بيع ابنته وهى قاصرة . وفى فرنسا قديماً بلغ من امتهان المرأة وهوانها عندهم أن عقد فى بعض الولايات الفرنسية مؤتمر عام سنة ٥٨٦ م ، أخذوا يبحثون فيه حالة المرأة ومركزها فى المجتمع ، وما إذا كانت تعد إنساناً أو غير إنسان ، وانتهى الأمر بتقرير أنها إنسان ؛ ولكن خلقت لتخدم الرجل ليس غير[1] ! ولا تنس ما كان من وأد بعض عرب الجاهلية بناتهم ، ومن اعتبار المرأة كالمتاع تورث عن أبيها وزوجها . والآن تغير هذا كله ، وأصبحت المرأة مساوية للرجل إلا فى بعض حقوق يرى بعض الأمم من الصالح العام عدم منحهن إياها

وإذا كانت النظريات والآراء الأخلاقية تختلف فى الأمة الواحدة باختلاف الزمن ، فهى كذلك مختلفة فى الزمن الواحد باختلاف البيئات. بينما نرى فى هذه الأيام الناس الذين هم على الفطرة كسود استراليا يعتقدون دينيًّا قدسية بعض أنواع من النبات والحيوان ، فيكون الموت جزاء من يجرؤ على أكل شىء منها[2] كما نرى البراهمة فى الهند يقدسون البقرة ويعتبرون أكبر الجرائم قتلها أو الأكل من لحمها ، وتقوم بينهم وبين مواطنيهم المسلمين لهذا السبب المعارك الدامية — بينما نرى هذا وأمثاله كثيراً ، نرى كثيراً من سود إفريقيا يستحلون بل يفضلون أكل لحوم البشر من أعدائهم الذين يسقطون فى ميدان الحرب ، أو عبيدهم الذين يعنون بتسمينهم ليكون منهم غذاء دسم شهى ، أو أقاربهم الذين نالت منهم السنون وعجزوا عن احتمال أعباء الحياة[3]

فى مقابل هذا وذاك نجد بعض البوذيين الدينيين كرهبان الهند الصينى يعدون جريمة قتل أى كائن حىّ مهما كان ؛ ويصل الأمر بهم إلى ترشيح مياه الشرب حتى لا يبتلع أحدهم أثناء شربه أية حشرة حقيرة غير مرئية فيكون فى ذلك موتها . أما نحن

(١) أسقف فرنسى يعتبر أشهر آباء الكنيسة اللاتينية (٣٥٤ — ٤٣٠)

(٢) الكتاب السابق ذكره للأستاذ الرحالة : Challaye

(١) مما يرجع إليه فى هذا كتاب : (مركز المرأة فى الاسلام) للسيد الأمير على الهندى

(٢) يرجع إلى كتاب Les formes élémentaire de la vie religieuse par Durkheim تأليف إميل دركيم

(٣) الكونغو الفرنسى Challay: Le Congo-français

فتتخذ موقفاً وسطاً بين الفريقين احترام الحياة الذى يعده هؤلاء الرهبان حقاً مقدساً لكل حى لا نراه حقاً إلا للآدميين ، ولا يعترف به أولئك المتوحشون إلا لعدد قليل كأسرة الشخص أو قبيلته أو أفراد قريته

كذلك الانتحار الذى يحرمه الدين الإسلامى وتنكره المدنية الأوربية الحالية ، يعده اليابانيون تقليداً وطنياً طيباً ، ويرونه واجباً فى كثير من الحالات ؛ ينتحر اليابانى حين يرى أنه جُرد من شرفه أو عانى سقوطاً فاضحاً كبيراً ، وينتحر احتجاجاً على ظلم ارتكب ، أو نحو ذلك من العوامل الأخرى التى تجيزه فى رأيهم . ذكر الأستاذ شاليي Challaye فى كتاب له عن اليابان بعد رحلة إليها طائفة كبيرة من حوادث الانتحار وعوامله ؛ منها : أن ضابطاً انتحر سنة ١٨٩١ ليلفت نظر الحكومة والرأى العام إلى تعدى الروسيا على بعض النواحى فى شمال اليابان ، وأنه فى سبتمبر سنة ١٨٩٢ انتحر أحد الضباط الكبار وزوجته أثناء سير جنازة الامبراطور إظهاراً لإخلاصهما له وعدم رغبتهما فى الحياة بعده[1]

وحرمة مال الغير لم تكن دائماً حقاً مقدساً لكل إنسان . التاريخ يقفنا على أن الغارات على الآمنين من القبائل الأخرى كانت من أبواب الارتزاق لدى كثير من الأمم فى جاهليتها ؛ واليهود كانوا يرون مال الغير — أى غير اليهود — حلالاً سائغاً لهم : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل »

من السهل مضاعفة هذه المثل والإتيان بغيرها مستمدة من حياتنا الحالية وتقاليدنا المختلفة فى الصعيد أو الوجه البحرى مثلاً من مصر ، وخاصة فيما يتصل بالأفراح والمآتم وعادات أخذ الثأر والانتقام ، مما يؤكد أن الآراء والأحكام الأخلاقية تتغير مع الزمن وتختلف مع الأوساط والبيئات

ولكن هل من الحق رغم تضافر هذه الشواهد كلها أن ننكر أن هناك حقائق أخلاقية عامة سايرت العُصُر وسادت فى جميع البيئات ؟ بيان ذلك فى الكلمة الآتية إن شاء الله

محمد يوسف موسى

(١) المؤلف نفسه فى كتابه : اليابان المصورة Le Japon illustré

ابتـــداء من اليوم

الاسبوع الثـــانى للقصـــة العظيمة

الدكتـــــور

مع

أمينة رزق ، دولت أبيض ، سليمان نجيب

أربع حفلات يوميا